تفسير

سورة والضحى

شيء من سيرته صلى الله عليه وسلم

اقتضت حكمة البارى جل وعلا التفرقة بين الناس، فجعل منهم الطيب والخبيث والصالح والطالح، والرضى وغير الرضى، والقانع والطامع، والسعيد والشقى.

ولكمال حكمته وعلمه لا يصطفى من كل جنس من أجناس المخلوقات إلا أطيبه فيختصه بنفسه ويرتضيه دون غيره، لهذا قد اختار رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من أكرم العناصر وأطيبها. اختاره واصطفاه، فنشأ عليه الصلاة والسلام على مكارم الأخلاق، حليما وقورا، رءوفا رحيما، صابرا، سهل الجانب، لين العريكة، صديقا صدوقا، ليس فى صدره غل، ولا فى نفسه حقد ولا حسد، متواضعا غاية التواضع لأهل الإيمان، رحيما على المؤمنين، شديدا على الكافرين، عفاً سمحا شجاعا، بعيدا عن الريب والظنون، لم يعهد عليه شيء من أوصاف الجاهلية، بعيدا عن الفحش فى المقال والبذاءة فى اللسان، بريئا من الكذب والنميمة والغش. ولا غرو فى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى — وقد علم أن سيكون صفيه وخاتم أنبيائه وأكرمهم عنده — قد كلأه بعين عنايته وشمله برعايته. اختاره الله من بين خلقه، فجعله لسانه الهادى الى طريق الرشاد، ورسوله الداعى الى محبة الله، وحبيبه الذى يطلب الى عباده القرب الى الله.

اختاره جل شأنه من خير أهل الأرض نسبا، فنسبه أشرف وأعلى من كل نسب، شهد بذلك أعداؤه، شهدوا بأن أشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأعلى

الأنساب نسبه ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبوه عبد الله ابن عبد المطلب أحب أبناء عبد المطلب اليه . نشأ فى مكة حيث العزة والكرامة والأخلاق الكريمة والشمائل الطيبة . خرج به أبوه حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة وهو يومئذ سيد بنى زهرة شرفا ونسبا ، فزوّجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وحسبا ، فلما بنى بها عبد الله حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن المنية عاجلت عبد الله فلم تكتحل عينه برؤية سيد الخلق فمات والرسول لا يزال جنينا فى بطن أمه .

فولد صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيه بشهور لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل على المشهور . ولد يتيما فلاحظته العناية فحببته الى جده عبد المطلب فصار شغله الشاغل وموضع عنايته ، لا سيما وقد عرفت أنه ابن أحب أبنائه إليه وآثرهم عنده ، فكفله جده عبد المطلب ، وأرضعته امرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها حليمة ابنة أبى ذؤيب ، إذ كانت عادة أعيان أهل مكة التماس المرضعات لأبنائهم ، وكانت نساء الأحياء الأخرى من العرب لفقرهن يحضرن الى مكة حينا بعد حين التماسا للرضعاء نظير لما يرزقنه به من مال تجود به أيدى الآباء بين حين وآخر ، نظير رعاية أولادهم فكن يطمعن فى المال ويرغبن فى ذى الجاه والثروة ، ليضمن معاشا رغدا وكسبا وافرا ، فلما أن جئن عقب ولادته صلى الله عليه وسلم أبينه — غير أن رعاية الله التى لاحظته لم تنفك ترعاه ، فكان أن ذلل الله نفس حليمة وأخضعها حيث أراد لها السعادة ، فأرضاها أن تأخذ رسوله بعد أن أبته وأباه المرضعات ، فلما أخذته عوضها الله عن قليل كانت تنتظره بكثير أفاءه عليها ، وبدلها برضا الخلق رضاه سبحانه جل شأنه فحسن حالها ، ويسرت معيشتها ، ودر لبنها ، وكثر كسبها ، بفضل الله وبركة الرسول ، قالت حليمة تخبر خبرها وتحدث بما أصابها من خير بعد أن قبلت محمداً عليه الصلاة والسلام

وضمته إليها : « خرجت أنا ونسوة من بنى سعد ومعى زوجى وابن لى صغير نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء لم تبق شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء[1] ومعنا شارف[2] لنا والله ما تبض[3] بقطرة ولا ننام ليلنا من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثدي ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، كذلك أنا ، إنما نرجو المعروف من أبى الصبي ، فكنا نقول يتيم ماعسى أن تصنع أمه وجده ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال: فلاعليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فذهبت إليه فأخذته وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك . ثم استطردت تقص ما جلب الله عليها رضى الله عنها من خير وبركة بفضله صلى الله عليه وسلم .

وما زالت حليمة ترضعه صلى الله عليه وسلم وتحبوه بعنايتها ، ومازال الله تعالى يكرم حليمة ويوفقها ، حتى أتم نعمته عليها ، فكتب لها الإسلام ، فأسلمت هي وزوجها فكانا من الناجين المخلصين .

درج محمد صلى الله عليه وسلم فى أحضان أمه وجده وهما لا يألوان جهدا فى الحرص عليه — غير أنه ما كاد يحس عطف أمه وحدبها عليه حتى كان ما أراد الله ففقد أمه ولما يبلغ السادسة ، فحباه الله عوضا عن ذلك زيادة حب جده له وعطفه عليه ، غير أنه لحكمة أرادها الله قضى جده وقد أوصى به عمه أبا طالب ، فخذا هذا فى تكفله حذو أبيه ولم يغير من أمره شيئا ، بل زاد عطفه عليه ومناصرته له . وكلنا يعلم ما كان

(١) بيضاء . (٢) الشارف : الناقة التى قد أسنت . (٣) أى ما يدر لبنها .

من أمر أبي طالب فى عنايته برسول الله وتحمله الشدائد والأذى من قريش ، حتى لقد آلى أن قريشا لن يصلوا الى محمد بأذى حتى يوسد فى التراب دفينا .

نما الرسول إذن بين يدى حليمة ، ثم يدى أمه الشريفة الطاهرة ، وكفالة جده عبد المطلب ، وعناية عمه أبي طالب ، فلم يشعر باليتم ولا أحس تغيرا فى الحياة ، بل كان ينعم بها ككل أبناء قريش : له مالهم ، وقد كان محببا فى قومه يحرص كلهم على إرضائه ويسعون الى التبرك به ، وكان موضع الرعاية من أهل عشيرته وأقربائه ، تحوطه العناية الربانية ، وتحفظه ، وتوجهه الى الخير دائما ، حتى عرف بين قومه بالأمين ، لأنه امتاز عن بقية الفتيان . فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة فى الحق ، وله من المزايا ما جعله نصيرا للضعفاء حكما بين الخصوم ، لم يصدر فى أعماله عن هوى ، بل كان يصدر فى أعماله عن قوة خفية تسيطر عليه وتهديه أبداً الى الخير ، فكان خلقه من صغره خلق الدين لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، حتى لقد حكى أبو طالب ما كان من عناية به ، وما رآه منه ، قال لأخيه العباس فيما قال : «لقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبنى ، وذلك عند مضى بعض الليل ، وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده ، وكان يقول فى أول الطعام : باسم الله الأحد ، ويقول فى آخره : الحمد لله ، فتعجبت منه ، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكة ولا جاهلية ، ولا رأيته وقف مع صبيان يلعبون » .

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو حفظت لى غنمى حتى أدخل مكة فاسمر بها كما يسمر الشبان ! فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة فسمعت عزفا بالدفوف والمزامير ، فقالوا : فلان بن فلان يزوج بفلانة فجلست أنظر اليهم ، وضرب الله على أذنى فنمت ما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال : فجئت صاحبى فقال : ما فعلت ؟

فقالت : ما صنعت شيئا ، ثم أخبرته الخبر ، ثم قال : قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس .

ولقد وفق الله نبيه الى طرق الكسب فسافر فى التجارة واتجر بمال لخديجة رضى الله عنها ؛ وكان من شأنه فى التجارة أنه ما اتجر إلا ربح ؛ ولقد تضاعف مال خديجة ببركة تجارته ؛ ولما علمت من شأنه صلى الله عليه وسلم ما أخبرها به ميسرة غلامها ممارآه فى خلقه وفى عناية الله به صلى الله عليه سلم ، وكانت سيدة حازمة شريفة ، رغبت فى الزواج به وتم لها ما أرادت لسبق سعادتها فى الأزل ، فكان زواجها به من فضل الله عليها ، فكانت رضى الله عنها أول من أسلم من النساء : آمنت بالله وبالرسول ، وصدقت ماجاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إنه ما كان يسمع شيئا يكرهه من المعاندين المكذبين فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تخفف عنه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس .

ولقد ساعدته بمالها فى كل ما يطلب ، حتى إنه دخل مرة عليها مغموما لقحط الزمان وأخبرها أنه إن بذل المال ينفد مالها فيستحى منها ، فدعت قريشا ومنهم الصديق فوهبته أمامهم كل مالها مشهدة أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه . ومازال عليه الصلاة والسلام بين قومه تحفه الهابة والوقار ، معروفا كما قدمنا بالأمانة والصدق ، حتى بعثه الله رسولا إلى الناس كافة ، فقام بأمر الدعوة ودعا قومه وعشيرته الأقربين ، وصدع بالدعوة بعد ذلك حيث أمر بذلك (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) .

وأوحى الله اليه ما أوحى من تعليم وإرشاد ، حتى غضب قومه وتألبوا عليه وألبوا باقى القبائل عليه أيضا ، كل ذلك وهو لا يفتر لحظة عن الدعوة الى الله بكل ما يملك من قوة ؛ وكان الوحى يتتابع عليه بالأوامر ، ثم فتر الوحى عنه مدة قصيرة حتى شق الأمر عليه وحزن من أجله ؛ وكان ذلك بعد أن نزلت سورة « تبت يدا أبى لهب »

وبعد أن ذهبت امرأة أبي لهب تسأل الرسول علام تهجوني فقال : إني والله ما هجوتك ما هجاك إلا الله تعالى . ثم انطلقت فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأتيه الوحى فرجعت إليه شامتة قائلة : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك ؛ وشمت المشركون وقالوا مثل ذلك القول ، فكان ذلك سببا فى نزول سورة (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) .

تفسير هذه السورة

أقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى أنه ما ودعه وما قلاه : ما تركه وما أبغضه ، وما كان ذلك ليكون ممكنا بعد أن أكرمه بما أكرمه به ووعده الحسنى وزيادة ، وبعد أن أخبره أنه خاتم المرسلين ، وأن كلته ستكون هى العليا وكلمة أعدائه السفلى ، فرد بذلك على المشركين زعمهم ، وآنسه صلى الله عليه وسلم ، وأزال الوحشة عنه حيث نفى ما زعموه على أبلغ وجه ، فكأنه يقول له عليه الصلاة والسلام : إن أى نوع يخل بمقامك الجليل لم يوجد ولم يكن فضلا عما زعموه من الترك . وفى التعبير بعنوان الربوبية وإضافته الى ضميره صلى الله عليه وسلم من كمال اللطف ما لا يخفى ، بما يتضمن من النكير على هؤلاء ، فكأنه يقول : كيف يتركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك كمالك اللائق بك ، وكيف يبغضك من أنت حبيبه وصفيه وخليله ؟ إنه لم يتركك ولم يبغضك ، بل أعطاك وسيعطيك من أنواع الكمالات وعليا الدرجات ما ليس فى حسبان أحد من هؤلاء .

والضحى : معروف ، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها . والليل : معروف ، وسجوه : سكون أهله . وذلك يكون غالبا فيما بين طرفيه أو بعد مضى برهة من أوله . وتخصيص الضحى بالإقسام به لأنه شباب النهار . والجواب قوله تعالى : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) أى ما تركك ربك منذ اختارك وما أبغضك منذ أحبك .

والمراد المبالغة فى نفى الترك كما شرحنا ، فهو نظير قوله تعالى : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

قال تعالى : (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ) أى الذى أعطاك ربك فى الآخرة خير لك وأعظم مما أعطاك فى الدنيا ، لأن ما أعطاك فى الدنيا من أنك سيد ولد آدم ، وأنك خاتم الأنبياء والمرسلين باق لك فى الآخرة يزاد عليه السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمتك على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين ، وإعلاء مرتبتهم ، وغير ذلك من الكرامات السنية ، فكان ما فى الآخرة خيرا لك مما فى الأولى لهذا ، ولأن ما فى الدنيا مشوب بالمضار ، وما أوتى عليه الصلاة والسلام فى الآخرة صاف عن الشوائب ؛ وما أعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الآخرة خير مما أعد لجميع الفائزين . ويكفى لذلك اختصاص المقام المحمود به صلى الله عليه وسلم ، لهذا كانت الآخرة خيرا له من الأولى على الإطلاق . وحمل بعضهم الآخرة على نهاية أمره صلى الله عليه وسلم ، والأولى على بدايته . والمعنى عليه أن نهاية أمرك خير من بدايته ، لأنك ستزداد قوة وتتصاعد رفعة — غير أن حمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا هو الظاهر ، والأنسب لمقام الامتنان .

والخلاصة أن معنى الآية أن الذى أعطاك ربك فى الآخرة خير لك وأعظم من الذى أعطاك فى الدنيا . ووجه ارتباط قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الأولى » بقوله : « ما ودعك ربك وما قلى » أن نفى التوديع والقلى يتضمن أن الله مواصله بالوحى ، وأنه حبيب الله . ولما كان ذلك من أعظم الكرامات على الله ، بل قد لا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه ، أخبره جل شأنه أن حاله فى الآخرة أعظم من ذلك وأجل .

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) : عدة شاملة منه جل وعلا لما أعطاه فى الدنيا : من الفلاح ، وانتشار الدعوة ، ودخول الناس فى الدين أفواجا ، والظفر بالأعداء ،

وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن . عدة شاملة لذلك ولما ادخره الله له من الثواب الذى لا يعلم كنهه إلا هو. قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن العطية فى قوله تعالى : « ولسوف يعطيك » هى الشفاعة حتى يرضى .

فدلت الآية على خيرى الدنيا والآخرة معا، فقد أعطاه الله فى الدنيا النصر والظفر ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه فى الآخرة الشفاعة العامة والخاصة وهى مزايا لم تعط لغيره ولم يظفر بها أحد سواه ، صلى الله عليه وسلم .

بعد أن أدخل جل شأنه الطمأنينة على رسول الله ، لأنه لم يتركه ولم يبغضه ، وأنه أعد له فى الدنيا والآخرة ما لم يعد لغيره ، وأنه سيعطيه فيرضى ، أخذ يعدد ما أفاض الله عليه فى أول أمره من النعم العظام ، ليكون الحاضر شاهدا على المترقب الموعود ، فيزداد قلبه الشريف اطمئنانا وتزداد نفسه سرورا وانشراحا ، فقال : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ) أى ألم يعلمك طفلا لا أبا لك فضمك الى من قام بأمرك وعنى بشأنك أتم العناية ، وهم جدك ووالدتك وعمك وحليمة السعدية مرضعتك التى رزقها بصحبتك الخير والبركة ، حتى أحبتك واهتمت كل الاهتمام بشأنك . وفيما قدمناه لك من عناية هؤلاء وكفالتهم له وذودهم عنه وقيامهم بشئونه وتحمل بعضهم الأذى فى سبيله ما يشرح لك هذه الآية ويوضحها .

(وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ) : جملة معطوفة على ما قبلها ، أى ألما وجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ؟

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من شأنه مع قومه أنه كلما دعاهم الى الدخول فى الدين و بيّن لهم الرشد من الغى وطاب إليهم البعد عما هم عاكفون عليه من الآراء السخيفة وعبادتهم لغير الله ، أبوا وصموا آذانهم عن سماع الحق ، وأعرضوا عن الإصغاء إليه ، واستحبوا العمى ، ورضوا بالضلال والكفر

عنادا واستكبارا ، وغلوا فى ذلك غلوّا كبيرا ، ولم يقفوا عند حد الإعراض ، بل كانوا يؤذونه صلى الله عليه وسلم ويؤذون من آمن به . كل ذلك والنبي صلى الله وسلم لا يترك دعوتهم ، ويصبر على أذاهم ، داعيا لهم فى كل حال بالتوفيق ، حرصا منه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم ، لفرط حبه لهداية الناس ، وأنه قد بلغ من أمره أنه حزن لإعراضهم حزنا كاد يذهب بنفسه (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) علم أن النبي هاله إعراض قومه عن نور الهداية حتى ألمت الحيرة بقلبه كيف يتخذ الطريق الى إخراج هؤلاء من الظلمات الى النور ، علم الله ذلك فهداه الى الصراط السوى فى الدعوة وأرشده الى أحسن المناهج فيها ، وعلمه ما لم تصل اليه العقول من الشرائع وعلمه ما لم يكن يعلم ، وطلب اليه ألا تذهب نفسه عليهم حسرات ، وأنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

وأبان له أن من القوم قوما لا ينفع فيهم الإنذار (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وبشره فى الوقت نفسه بأن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وأن نصر الله لا بد مؤاتيه ، وأن الناس تدخل فى دينه أفواجا . ولقد وقع ما أراده الله من تلك النعم العالية ، فصدق وعده ، ونصر عبده ، وهداه وامتن عليه فقال : « ووجدك ضالا فهدى » .

هذا هو الظاهر من الآية ، وهو الأنسب لمقام الامتنان على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمّا أنه صلى الله عليه وسلم ضلت ناقته عن الطريق وهو مسافر الى الشام ، أو غاب عن جده عبد المطلب وهو صغير ، أو حصل له ذلك وهو لدى السيدة حليمة بعد فطامه ، فلا يناسب مناسبة تامة مقام المنة على خاتم الأنبياء وصفوة الخلق وأكملهم عنده تعالى .

(وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ) ـ العائل : الفقير . أى علمك فقيرا محتاجا اليه فأغناك به عن كل ما سواه ، فقنعت نفسك فلم تمد عينك الى عرض الدنيا الزائل ولا الى حطامها الفانى . أغناك ربك فلم تأبه لزينة الدنيا ، أغناك فيسر لك المال بما أعطاك من مال خديجة زوجك ومال أبى بكر صديقك ، فلم يجد المال الى نفسك سبيلا ، بل كنت تعين الكل ، وتؤتى المحروم ، وتدخل اليسار على المعسر ، وتؤثر الفقير على نفسك ، لم تر للمال قيمة إلا أنه وديعة عندك تصرفها فى مصارفها مما يعود بالنفع على غيرك من أمتك . أغناك الله عن كل من سواه حيث وجدك عائلا محتاجا الى الجاه والجند والأعوان ، فيسر لك أصحابا يؤثرونك على أنفسهم ، ويسترخصون كل عزيز لديهم فى سبيل مرضاتك ، وينصرونك ويؤيدونك ، فجعل لك منهم جندا وأعوانا ناصروك وقاتلوا معك ، وجعل جاهك أعظم جاه ، وأيدك بالنصر وألقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وجعلك مهيب الجانب ، فكان الذى يلقاك فردا يفرق ويخاف من هيبتك التى جللك الله بها .

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) : لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يرعى النعمة ويقدرها ويشكر عليها ، وكان من شكر النعمة أن يعامل الشخص غيره المعاملة التى تلائم مزيد النعم وتستوجب زيادة الفضل ، أرشده سبحانه وتعالى (الخطاب له ولأمته) الى أن رعاية الناس بلين ورفق من مظاهر الشكر . ولما كان أولى الناس بالرعاية وأحقهم بحسن المعاملة اليتيم ، لأنه عديم الأهلية فاقد القدرة ، يطمع فى ماله الأقوياء ، وكان صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بذلك بما كان يتيما ، ورأى من صنيع الناس باليتامى ما رآه فى صغره ، ورأى ما كان من حدب عمه عليه ونصرته إياه ما لولاه لكان للأقوياء شأن عليه ، حضه الله جل شأنه على مواساة اليتيم وعدم قهره وحفظ ماله ، فقال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » ومثل اليتيم كل شخص عدم الأهلية ، وإنما خص اليتيم بالذكر لأنه أظهر فى ذلك من غيره .

ولما كان العلم هو الخير كله ، إذ لا منقبة إلا وهو الدليل عليها، ولا مفخرة إلا هو سندها ، ولا حسنة إلا هو مفتاحها ، ولولاه ما تميز الانسان على الحيوان ، ولا وجد الناس طريقا الى الفضل وسبيلا الى المجد ، بل ولا الى الكسب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بذلك ، أوصاه الله تعالى بطالب العلم خيرا ، فقال عز من قائل : « وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » أى وأما من طلب إليك أن يعلم فأفده ولا تنهره ، لأن ذلك هو عماد الدعوة وأساس الهداية ، إذ من علم فقد رشد ، ومن جهل فقد هلك ؛ ولمزيد العناية بهذا ورد الوعيد فيمن علم علما وكتمه . هذا هو الظاهر من معنى الآية ، وإن صح حمل الآية على أن المراد بالسائل طالب المال ، إلا أن ما قدمناه يجعل حملها على طالب العلم أظهر .

على أنه يصح التعميم فى الأمرين ، أى لا تنهر طالب العلم ولا طالب المال ، وذلك إرشاد منه تعالى له ولأمته .

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) : لأن فى الحديث عن النعمة شكرا لها . وقد روى مرفوعا : من أعطى عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلّ بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور . وقد استحب السلف الصالح التحدث بما يعمله الانسان من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار ليقتدى الناس به فى ذلك . والمراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم من صنوف النعم التى من جملتها ما تقدم .

وخلاصة القول أن الله أرشد نبيه بما معناه أنك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك وهداك وأغناك ، فمهما يكن من شئ فالواجب ذكر هذه النعم والاقتداء بالله تعالى بالعطف على اليتيم ورحمة السائل . والله أعلم .

طه مبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا